عبد الحميد كشك

الإسلام وأصول التربية

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ
مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ
قرآن كريم

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين . وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين . وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا محمداً رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين . صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبي الأمين ، وعلى آله وصحابته الغر الميامين . وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين .

أما بعد ، فإنى أقدم هذا الكتاب للقارىء الكريم ، وقد خصصته للحديث عن الأخلاق التى يجب على المؤمنين أن يتحلوا بها . ونبدأ الكلام عن ذلك بتفسير قوله تعالى فى وصف المؤمنين : (والذين هم عن اللغو معرضون) وبالله التوفيق .

عبد الحميد كشك

تمهيد

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

صدقت يارب العزة ، يامن أدبت المؤمنين بأدب القرآن ، وقد كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن . وقد مدحه ربه بما منحه فقال له : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

وفى هذه الآيات وصف الله تعالى المؤمنين بصفات أولها الخشوع فى الصلاة ، ثم أعقب ذلك بوصفهم بأنهم معرضون عن اللغو .

وفى هذا الشأن يحدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم بإجابته الجامعة عن سؤال لذلك الصحابى الجليل .

قال عقبة بن عامر رضى الله عنه ، ما النجاة يارسول الله ؟ قال : أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » .

يريد الإسلام من المسلم أن يكون رقيباً على نفسه . وأول عضو يستحق الرقابة « اللسان » ؛ إذ أن البلاء موكل بالمنطق .

وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه خطبة قال فيها :

« كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيعه من الموتى سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم ، ونأكل من تراثهم ، كأننا مخلدون بعدهم، نسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن أمسك الفضل من قوله ، وأنفق الفضل من ماله . طوبى لمن وسعته السنة ولم تسعه البدعة . طوبى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة » .

هذا قاموس أخلاق ، نبع من أطهر معين وأكرمه ، من سيد الأخلاق كلها . من مربى البشرية التربية النقية الطاهرة ، على البر والتقوى ، من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن من أهم الصفات التى أمر الإسلام باتباعها ، والتحلى بها ، الإعراض عن اللغو .

واللغو هو كل كلام لا خير فيه ، وكل عمل لا جدوى منه .

(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) .

اللغو هو كل كلام يسقط صاحبه من نظر الصالحين ، ويدخله

فى سجل المستهترين العابثين . ورحم الله امرءاً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم .

اقرأ معى قوله تعالى فى وصف المؤمنين :

(وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) .

ثم تأمل إلى أى مدى ارتفعوا بأنفسهم عن هذه الدركات من التدلى .

إنهم لم يقتصروا على تطهير ألسنتهم من اللغو ، إنما أيضاً طهروا أسماعهم منه .

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

إن مسئولية الكلمة فى الإسلام لها مكانتها ، سواء كانت الكلمة منطوقة أم مسموعة أو غير ذلك .

قال تعالى : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) .

وقال جل شأنه : (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم) .

إذا كان اللغو خلقاً ذميما يذرى بصاحبه ويدخله فى زمرة العابثين ، فعلى كل مؤمن ومؤمنة أن يتخلق بخلق الإسلام . وقد دعا الإسلام دعوة صادقة إلى حسن الخلق .

الدعـــوة إلى حسن الخُلُق

عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم ، فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » (رواه مسلم والترمذى)

هذا الحديث عن جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم . فقد أوجز الإجابة الإيجاز البليغ ، فهو الذى تحدثت عن بلاغته الدنيا ، وأعطاه الله جوامع الكلم ، فقد جمع البر فى حسن الخلق .

وللبر معان لا بد لكل مسلم أن يقف أمامها موقف البصير المتأمل .

جاء البر فى القرآن الكريم بمعنى للتقوى .

قال تعالى (ولكن البر من اتقى) .

والتقوى كلمة جامعة كما فسرها الإمام على كرم الله وجهه فى أربع عبارات إذ قال :

التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

هذا تفسير جامع من ربيب بيت النبوة .

أليس علىّ هو الذى تربى فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتتلمذ على يديه ، وشرب رحيق الهداية من النبع الصافى ؟

آية جامعة فى معانى البر

وفى القرآن العظيم آية تعتبر مركز الدائرة الذى تدور حوله المعانى الأساسية للإسلام .

هذه الآية شرحت البر شرحاً مستفيضاً فجعلته أساس العقائد والمعاملات ، والعبادات والسلوك .

قال الله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية :

« اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة ، وقواعد عميقة ، وعقيدة مستقيمة » .

ثم قال بعد ذلك « وأما الكلام عن تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة . شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل ،

وامتثال أوامره ، والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الآية . كما قال فى الأضاحى والهدايا : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) .

ثم قال ابن كثير ، يروى عن أبى العالية أن اليهود تقبل قبل المغرب .

وكانت النصارى : تقبل قبل المشرق ، فقال الله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) .

قال مجاهد : ولكن البر ما ثبت فى القلوب من طاعة الله عز وجل .

وقال الضحاك : ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجهها.

وقال الثورى : (ولكن البر من آمن بالله) الآية . قال : هذه أنواع البر كلها » .

وصدق رحمه الله ، فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله، وأنه لا إله إلا هو ، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله .

(والكتاب) وهو اسم جامع يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب ، الذى انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ،

ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله تعالى (وآتى المال على حبه) أى أخرجه وهو محب له ، راغب فيه ، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف . كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعاً « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » .

قال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً) .

وقال تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

وقوله تعالى : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ماهم محبون له .

وقوله (ذوى القربى) وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت فى الحديث « الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم ثنتان : صدقة وصلة ، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك .

وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم فى غير موضع من كتابه العزيز .

وقوله تعالى : (واليتامى) هم الصغار الذين مات آباؤهم . وقد روى عبد الرزاق عن على رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يتم بعد حلم » .

(والمساكين) وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذى لايجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه » .

(وابن السبيل) وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه . ويدخل فى ذلك الضيف ، كما روى على ابن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين . وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر وقتادة .

(والسائلين) وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبى يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها — قال عبد الرحمن حسين بن على — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « للسائل حق وإن جاء على فرس » .
(رواه أبو داود)

(وفى الرقاب) وهم المكاتبون الذين لايجدون ما يؤدونه فى كتابتهم. قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا شريك عن أبى حمزة عن الشعبى حدثتنى فاطمة بنت قيس أنها سألت

رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفى المال حق سوى الزكاة ؟ قالت فتلا على (وآتى المال على حبه) ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبى إياس ويحيى بن عبد الحميد كلاهما عن شريك عن أبى حمزة عن الشعبى عن فاطمة بنت قيس قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فى المال حق سوى الزكاة » ثم قرأ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب — إلى قوله — وفى الرقاب) وأخرجه ابن ماجه والترمذى .

(وأقام الصلاة) أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى .

وقوله (وآتى الزكاة) يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) . وقول موسى لفرعون : (هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى) . وقوله تعالى : (وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة) ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ، ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس أن فى المال حقاً سوى الزكاة والله أعلم.

وقوله (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) كقوله (الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق) .

وعكس هذه الصفة النفاق كما صح فى الحديث : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان » .

وفى الحديث الآخر : « وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ؛ وإذا خاصم فجر » .

وقوله : (والصابرين فى البأساء والضراء) أى فى حال الفقر وهو البأساء ، وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء .

(وحين البأس) أى فى حال القتال والتقاء الأعداء قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمدانى ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم . وإنما نصب (الصابرين) على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته ، والله أعلم وهو المستعان وعليه التكلان .

وقوله : (أولئك الذين صدقوا) أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء الذين صدقوا .

(وأولئك هم المتقون) لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

• • •

أخـــلاق قـرآنيـــة

وبعد الفراغ من ذكر ما ورد فى آية البر ، نأتى إلى درة أخرى من درر القرآن الساطعة ، التى اشتملت على لآلىء لامعة فى العقيدة والأخلاق . إنها آية من سورة النساء ، يقول فيها الحق جل فى علاه :

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً) .

أخا الإسلام : هذه آية كريمة اشتملت على عقيدة التوحيد . وما أجلها من عقيدة ، وعلى مكارم الأخلاق والصلة والبر ، وما أعظمها من مكارم . إنها ذروة سنام الإسلام .

فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

إنها آية تفيض بالنور والرحمة ، مثلها فى ذلك كالنور المتدفق الذى يبدد غياهب الظلمات ، ويمحو فلول الدجى إذا ما ادلهمت الخطوب ، واحتدمت الشدائد .

وقد صدق مولانا إذ يقول فى وصف كتابه (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم

صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) .

يقول علماء التفسير رحمهم الله تعالى فى هذه الآية : يأمر سبحانه وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الآنات والحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل « أتدرى ما حق الله على العباد ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال : « أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً » .

ثم قال « أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك : أن لا يعذبهم» .

ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود . وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين . كقوله (أن اشكر لى ولوالديك) وكقوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) .

ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، كما جاء فى الحديث « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة » .

ثم قال تعالى (واليتامى) وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ، ومن ينفق عليهم ، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم .

ثم قال (والمساكين) وهم المحاويج من ذوى الحاجات الذين لايجدون

من يقوم بكفايتهم ، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم .

وقوله (والجار ذى القربى والجار الجنب) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : والجار ذى القربى ، يعنى الذى بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب الذى ليس بينك وبينه قرابة . وكذا روى عن عكرمة ومجاهد وميمون بن مهران ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، ومقاتل ابن حيان ، وقتادة . وقال أبو إسحق عن نوف البكالى فى قوله : (والجار ذى القربى) يعنى الجار المسلم ، (والجار الجنب) يعنى اليهودى والنصرانى . (رواه ابن جرير وابن أبى حاتم)

أحاديث توصى بحسن الجوار

وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث توصى بحسن الجوار، نسوق منها ما يلي :

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عمر بن محمد بن زيد أنه سمع محمداً يحدث عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » أخرجاه في الصحيحين من حديث محمد بن زيد بن عبدالله ابن عمر به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن داود بن شابور عن مجاهد عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا عبد الله بن يزيد ، أخبرنا حيوة ، أخبرنا شرحبيل بن شريك أنه سمع أبا عبد الرحمن الجيلي يحدث عن عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان عن أبيه عن عباية بن رفاعة عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يشبع الرجل دون جاره » . (تفرد به أحمد)

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا محمد بن فضيل ابن غزوان ، حدثنا محمد بن سعد الأنصارى قال : سمعت أبا ظبية الكلاعى ، سمعت المقداد بن الأسود يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ما تقولون فى الزنا ؟ قالوا حرام حرمه الله ورسوله ، وهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه بأن يزنى بحليلة جاره » .

قال : « ما تقولون فى السرقة ؟» قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام إلى يوم القيامة .

قال :«لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره » (تفرد به أحمد)

وله شاهد فى الصحيحين من حديث ابن مسعود « قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » .

قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » .

قلت : ثم أى ؟

قال : أن « تزانى حليلة جارك » .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا هشام عن حفصة عن أبى العالية ، عن رجل من الأنصار قال : خرجت من أهلى أريد النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا به قائم ، ورجل معه مقبل عليه ، فظننت أن لهما حاجة . قال الأنصارى : لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعلت أرثى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من طول القيام ، فلما

انصرف قلت يا رسول الله لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثى لك من طول القيام . قال « وقد رأيته ؟ » قلت نعم قال : أتدرى من هو؟ قلت : لا . قال :«ذاك جبريل ما زال يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . ثم قال « أما إنك لو سلمت عليه لرد عليك السلام » .

قال عبد بن حميد فى مسنده : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا أبو بكر يعنى المدنى عن جابر بن عبد الله قال : جاء رجل من العوالى ورسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام يصليان حيث يصلى على الجنائز ، فلما انصرف قال الرجل يارسول الله من هذا الرجل الذى رأيته يصلى معك ؟ قال : « وقد رأيته » ؟ قال : نعم ، لقد رأيت خيراً كثيراً ، قال: « هذا جبريل ما زال يوصينى بالجار حتى رأيت أنه سيورثه » تفرد به من هذا الوجه وهو شاهد للذى قبله .

قال أبو بكر البزار : حدثنا عبيد الله بن محمد أبو الربيع المحاربى ، حدثنا محمد بن اسماعيل بن أبى فديك ، أخبرنى عبد الرحمن بن الفضل عن عطاء الخراسانى عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وهو أدنى الجيران حقاً ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقاً .

فأما الجار الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له . له حق الجوار .

وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار .

وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم، له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم » .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبى عمران ، عن طلحة بن عبد الله عن عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :

إن لى جارين فإلى أيهما أهدى ؟

قال « إلى أقربهما منك باباً » ، ورواه البخارى عن حديث شعبة به.

روى الطبرانى وأبو نعيم عن عبد الرحمن فزاد قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ فجعل الناس يتمسحون بوضوئه .

فقال : « ما يحملكم على ذلك ؟ »

قالوا : حب الله ورسوله .

قال : « من سره أن يحب الله ورسوله فليصدق الحديث إذا حدث ، وليؤد الأمانة إذا ائتمن » .

قال أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول خصمين يوم القيامة جاران » .

قوله تعالى فى الآية الكريمة :

(والصاحب بالجنب) .

قال النووى عن جابر الجعفى ، عن الشعبى عن على وابن مسعود

قال : هى الزوجة . وقال سعيد بن جبير : هو الرفيق الصالح .

وقال زيد بن أسلم : هو جليسك فى الحضر ورفيقك فى السفر .

والنص الكريم يشمل كل هذه المعانى ، فهو يفيض أدباً وخلقاً وسماحة ورحمة .

وأما (ابن السبيل) فهو المسافر المجتاز فى بلد ليس معه شىء يستعين به على سفره ، فيعطى من الصدقات مايكفيه إلى بلده وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شىء فيعطى من مال الزكاة كفايته فى ذهابه وإيابه .

وما قوله تعالى (وما ملكت أيمانكم) فإنها وصية بالأرقاء لأنهم ضعاف الحيلة . وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يوصى أمته وهو فى مرض الموت يقول « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون » . فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه « والله الله فى النساء » .

روى الإمام أحمد بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة . وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته » . (رواه مسلم)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق » (رواه مسلم أيضاً)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أولقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولى حره وعلاجه » .

وروى مسلم « فليقعده معه فليأكل ، فإن كان الطعام مشفوهاً قليلا فليضع فى يده أكلة أو أكلتين » .

وعن أبي ذر الغفارى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » . (أخرجه البخارى ومسلم)

قوله تعالى (إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً) أى مختالا فى نفسه معجباً متكبرا ، فخوراً على الناس ، يرى أنه خير منهم ، فهو فى نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض .

الوصـــايا العشـــــر

قال الله تبارك وتعالى :

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها . وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

إعلم يا أخا الإسلام أن هذه الآيات الكريمة اشتملت على خيرى الدنيا والآخرة . ففيها أصول العقائد وشعائر العبادات . ومبادئ الأحكام ، وقواعد النظام . ويكفى أن تعلم ما قاله ابن مسعود فى شأنها .

قال رضى الله عنه : « من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً — إلى قوله تعالى — لعلكم تتقون) .

وجاء فى فضلها أيضا ما رواه الحاكم فى مستدركه قال : حدثنا بكر بن محمد الصيرفى عن عروة حدثنا عبد الصمد بن الفضل . حدثنا مالك بن إسماعيل المهدى حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عبد الله ابن خليفة قال : سمعت ابن عباس يقول : فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) الآيات. ثم قال الحاكم صحيح الإسناد .

وإليك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى هذه الآيات الثلاث :

عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « أيكم يبايعنى على ثلاث » ثم تلا رسول الله — صلى الله عليه وسلم : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) حتى فرغ من الآيات ، فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه » ثم قال صحيح الإسناد .

التفسير

يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه الكريم — بصفته المبلغ عن الله — فيقول له : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك فعلوه بآرائهم ، وتسويل الشياطين لهم .

والخطاب هنا يشمل كل عاقل ، وكل من يتأتى منه الخطاب .

وفى التعبير بقوله جل شأنه (تعالوا) يفيد أن فى العمل بهذه الوصايا العلو والرفعة ، ولم يقل احضروا أو اجتمعوا أو أقبلوا ، إنما قال (تعالوا) لما فى هذه الصيغة من الارتفاع من حضيض الغبراء إلى باذخ العلياء .

ومعنى (أتل ما حرم ربكم عليكم) أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً ، لا عن سبيل الظن والتخمين ، إنما على سبيل الحق واليقين ، الموحى به الله إلىّ .

قوله جل شأنه (ألا تشركوا به شيئاً) هذه هى الوصية الأولى من الوصايا العشر .

ومعنى هذا أن سياق الكلام ولحاقه يفيد أن المعنى على تقدير وأوصاكم ألا تشركوا به شيئاً ، وعلى هذا يكون معنى هذا النص : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم وأوصاكم ، بدليل ما جاء فى ختام الآية من قوله جل شأنه (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) .

ولما كان التوحيد هو الركن الركين ، والحصن الحصين ، والجناب الأعلى ، فإن الكتاب والسنة كثيراً ما يبدآن به الوصايا ، ومن ذلك قوله جل شأنه : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)

وقوله جل جلاله (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا) .

وقوله تبارك وتعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) .

وقوله عز وتقدس (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) .

وقوله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

قال الله جل شأنه (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما) .

وفى آية أخرى (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) .

وعقيدة المسلم يجب أن تكون مبنية على التوحيد الخالص .

فالله جل جلاله مالك الملك ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير إنه على كل شىء قدير .

والله عز وجل هو الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويرزق من يشاء بغير حساب .

هو الحى القيوم ، الحميد المجيد ، الغنى الرقيب ، الحسيب الشهيد ، الوكيل المجيد ، الفتاح الخلاق ، الوهاب الرزاق ، الباعث الوارث ، الواجد الماجد ، الواحد ، الخافض الرافع ، الضار النافع ، القابض الباسط ، الرحمن الرحيم ؛ الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور ، العليم الحكيم ؛ ذو الجلال والإكرام .

تقدس عن مشابهة الأغيار ذاته ، وتنزه عن مماثلة الكائنات صفاته .

بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له . غنى كل فقير ؛ وعز كل ذليل ؛ ومفزع كل ملهوف ، وقوة كل ضعيف ، ورضا كل يائس ، ورحمة كل بائس .

من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

سبحانه لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، فوق كل شىء ، وليس تحته شىء ، وهو فى كل شىء لا كشىء فى شىء ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزئ ، ولا متناه ولا متلون . ولا متكيف . لا يسأل عنه بما لأنه لا يعرف حقيقة الله إلا الله ، ولا يسأل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ، ولا يسأل عنه بأين هو لأنه خالق المكان . وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . والقول الفصل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

التوحيد الخالص

(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) .

سبحانه واحد فى ذاته لا قسيم له واحد فى صفاته لا شبيه له . واحد فى أفعاله لا شريك له .

قيل لأبى بكر الصديق — رضى الله عنه : بم عرفت ربك يا صديق ؟

قال : عرفت ربى بربى ، ولو لا ربى ما عرفت ربى .

قيل : فكيف عرفته ؟

قال : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك .

وقيل للإمام على رضى الله عنه : يا إمام : هل رأيت ربك ؟

قال الإمام : وكيف أعبد ما لا أرى ؟

قيل : فكيف رأيته ؟

قال : سبحان ربى إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قيل له : يا إمام فمتى كان الله ؟

قال رضى الله عنه : ومتى لم يكن ؟ سبحانه هو الأول بلا بداية ، الآخر بلا نهاية . الظاهر فلا شيء فوقه ، الباطن فلا شيء دونه ، وهو بكل شيء عليم .

قيل للإمام مالك بن أنس — رضى الله عنه ، يا إمام: ما تقول فى قوله جل شأنه (الرحمن على العرش استوى) ؟

قال الإمام : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان .

سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

قيل لأحد العارفين بالله : ما الدليل على وجود الله ؟

فقال متعجباً : ومتى غاب سبحانه حتى تسألونى عن وجوده ، سبحانه آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .

آيات دالة على التوحيـــد

قال الله تبارك وتعالى :

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون. أمن خلق السماوات والأرض . وأنزل لكم من السماء ماءاً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله ، بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أءله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون) .

هذا المشهد القرآنى المجيد حافل كأمثاله من المشاهد بألوان الأدلة التى أبدعها الخالق ليدل بها على أن الإتقان والإبداع والترابط والتكوين والاتساق والنظام كل هذا لا يمكن أن تدخله الشركة ، إذ لو دخلته لأدى ذلك إلى فساد النظام .

قال مولانا تبارك وتعالى :

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله من فى السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين . أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) .

وهذا مشهد آخر يخاطب العقل الرشيد بأسلوب المنطق السديد ،

ويعرض لقضية التوحيد عرضاً يتجاوب مع أصحاب العقول . ويقبله ذوو الألباب . (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) لأن الشركة تدعو إلى الاختلاف والتشاكس ، ولو كان ذلك كذلك ، لأدى إلى وقوع الخلل فى هذا الكون المتقن الصنع ، البديع المنظر ، الذى يشهد بلسان الحال والمقال على وحدانية الخالق ، وتفرده بالجلال والجمال والكمال والعظمة .

والقرآن فى هذه السورة سورة الأنبياء يسأل كل جاحد بالوحدانية فيقول :

(قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون . أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) .

ثم يسير موكب التوحيد فى السورة نفسها سيراً يبهر العقول ، ويملأ القلب أمنا وسكينة ، فهو يعرض لنا مشاهد الأنبياء وهم يعملون فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحـــد هو قول لا إله إلا الله .

وما كانت صلاة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليلة الإسراء بإخوانه الأنبياء — وقد جمعهم الله له — ما كانت هذه الإمامة إلا نداء يجلجل فى سمع الدنيا أن عقيدة الأنبياء واحدة : توحيد الله والإقرار له بخالص العبودية ذاتاً وصفات وأفعالا .

ألم يقل له مولانا (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) .

مواكب التوحيـــد

نعم . تسير مواكب التوحيد فى هذه السورة ، فتعرض رسالة موسى وهارون عرضا سريعاً .

(ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءاً وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) .

ثم بعد ذلك يصف القرآن الكريم بأنه ذكر ومبارك فيقول سبحانه : (وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) .

وفى تفصيل رائع وتعبير رفيع ، يكشف لنا الغطاء عن هذا المشهد التوحيدى الذى كان بطله إبراهيم ، والذى نشأ فى قلعة الأصنام وعاصمة الشرك ، لكنه وقف وحده يعلن كلمة التوحيد ، ويرفع رايته خفاقة على رءوس الملاحدة وإن رغمت أنوفهم ، فإن قافلة التوحيد ستظل تشق طريقها ، مرددة كلمة ربها ، هاتفة بعظمة خالقها ، مهما كانت الذئاب تعوى .

لقد تعرض إبراهيم لمحاكمة عقدها الظالمون ، ووجهوا إليه الأسئلة بعد ما تشاوروا فيما بينهم (من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) ؟

(قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) .

واستدعى إبراهيم لحضور هذه الجلسة الصاخبة ، التى دبرها وحاك خيوطها أئمة الكفر ، ورءوس الشرك .

وهذا هو الخليل يقف مرفوع الرأس ، مشرئب العنق ، فى جلال الواثق ، وإيمان الثابت ، وعقيدة الخاشع .

يقال له : (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) ؟

فيجيب فى تهكم مر ، بهم وبعقولهم ، ويسفه أحلامهم فيقول ، (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) .

وترفع الجلسة للمداولة ، ويتشاورون فيما بينهم .

و ها هو القرآن يصور هذه اللحظة فيقول :

(فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم)

وتعود الجلسة للانعقاد ، وفى صرامة وغلظة يقال لإبراهيم :

(لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) .

وبلسان اليقين ومنطق الحق المبين يقول إبراهيم :

(أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) ؟

و بعد ما فجر إبراهيم هذه القنبلة فى ساحة الظالمين ، أصدروا الحكم على إبراهيم بالإعدام حرقاً .

(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين)

وهنا يبدأون فى تنفيذ الحكم ، فيجمعون الوقود من شتى الأرجاء ، ليحرقوا بذلك كله واحداً يوحد خالقه ،وتندلع ألسنة اللهب حتى كانت الطير لا تستطيع أن تحلق فوق هذه المنطقة .

ولماذا كل هذا ؟

ليطفئوا حقد الشرك الأسود ، فالشرك ظلمات بعضها فوق بعض كما قال مولانا جل فى علاه :

(أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

فماذا حدث ؟

لقد ضجت ملائكة السماوات العلى تشكو له ظلم القوم الكافرون . وما كان ربك نسياً .

لقد قال لهم : ياملائكتى إذا استغاث خليلى بكم فأغيثوه ، فقد أذنت لكم ، وإن استغاث بى فإنى قريب مجيب .

يقول علماء قصص الأنبياء :إن كبار الملائكة تبادلت على إبراهيم ، يقول كل منهم : ألك حاجة إلىّ ؟

وكان جوابه لا ، بل أنا فى حاجة إلى الله .

حتى قال له الأمين جبريل :« فاسأل الله يا إبراهيم » .

فقال له : يا جبريل « حسبى بسؤالى علمه بحالى »

وكان يردد:

حسبى الله ونعم الوكيل .

ماذا كانت العاقبة ؟

وماذا كانت النتيجة ؟

لقد أصدرت محكمة الأرض حكمها على إبراهيم بالإعدام حرقاً .

وأصدرت محكمة السماء حكمها له بالإفراج عنه فوراً .

يقول الواحد القهار (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) .

وتأمل معى حكمة الله فى أمره للنار ، لم يقل لها كونى برداً على إبراهيم إذ لو كانت كذلك لارتعدت أوصاله . وتجمد الدم فى عروقه من شدة بردها .

ولم يقل لها كونى سلاماً على إبراهيم . إذ لو كانت كذلك لاشتد عليه حرها .

لكن مولانا جلت حكمته ، جمع لها بين البرودة والسلام ، ليعيش إبراهيم ساعة نزوله فيها عيشة راضية ، لا تسمع فيها لاغية . نزع الله من النار الحرارة بالإحراق، وأبقاها على الإضاءة والإشراق فإبراهيم الذى يعبد الله وحده لابد أن ينجيه الله وحده .

ابراهيم عليه السلام فى مشهد قرآنى جليل

وإليك هذا المشهد كاملا من كتاب الله . اقرأه يا أخا الإسلام ، وأعد قراءته وعش فيه ، ففيه نور التوحيد ، وكمال اليقين ، فيه شذا المعرفة ، تنشقه النفوس المستبصرة . اقرأ هذا المشهد .

(ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم

إن كنتم فاعلين قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين)

مع نبي الله لوط عليه السلام

ثم تحدثنا السورة الكريمة عن نبي الله لوط عليه السلام فتقول آياتها : « ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين » .

وشأن لوط عليه السلام كشأن غيره من الأنبياء . دعا قومه إلى توحيد الله ونبذ عبادة غيره ، والبعد عن الفواحش .

قال تعالى :

(كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) .

فلوط قد رفع لواء التوحيد ، ونشر راية العفة والتقى والهداية والصيانة .

مع نبى الله نوح عليه السلام

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى نبى لبث فى قومه تسعمائة وخمسين عاماً . تحدثنا سورة الأنبياء عنه فى جلال وروعة .

يقول سبحانه وتعالى :

(ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) .

فهذا إخبار من الله سبحانه وتعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه :

(فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر)

وقال نوح :

(رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً) .

ولهذا قال ههنا :

(إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله) أى الذين آمنوا به.

كما قال فى موضع آخر :

(فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) .

وقوله : (من الكرب العظيم) أى من الشدة والتكذيب والأذى فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن وجيلا بعد جيل على خلافه .

وقوله : (ونصرناه من القوم) أى ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم (الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) أى أهلكهم الله بعامة ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً ، كما دعا عليهم نبيهم .

(إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) .

مع النبيين داود وسليمان عليهما السلام

وينتقل بنا السياق الكريم فى سورة الأنبياء إلى نبيين عظيمين هما داود وابنه سليمان . وقد رفعا راية الحق والتوحيد . والقرآن فى هذا المشهد من سورة الأنبياء يذكر النعمة الإلهية التى أنعم الله بها عليهما . إنها العلم والحكم وهل بعد العلم والحكم درجة . إنها الدرجة العليا .

(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) .

وإليك هذا المشهد الكريم وتفسيره :

(وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون . ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) .

التفسير

قال ابن إسحاق عن مرة عن ابن مسعود : كان ذلك الحرث كرم قد تدلت عناقيده .

وكذا قال شريح .

وقال ابن عباس : النفش : الرعى .

وقال شريح والزهرى وقتادة : النفش لا يكون إلا بالليل ، زاد قتادة : والهمل بالنهار .

وقال ابن جرير :

حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصم قالا :

حدثنا المحاربى عن أشعث عن أبى إسحاق عن مرة عن ابن مسعود فى قوله : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم) .

قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته .

قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم .

فقال سليمان : غير هذا يا نبى الله .

قال : وماذا ك ؟

قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما

كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها .

فذلك قوله : (ففهمناها سليمان) .

وكذا روى العوفى عن ابن عباس .

وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد . حدثنا خليفة عن ابن عباس قال :

قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب .

فقال لهم سليمان : كيف قضى بينكم ؟

فأخبروه .

فقال : لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا .

فأخبر بذلك داود ، فدعاه فقال :

كيف تقضى بينهم ؟

قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم ، فإذا بلغ الحرث الذى كان عليه أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا خديج عن أبى إسحاق عن مرة عن مسروق قال :

الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرماً فلم تدع فيه ورقة

ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته ، فأتوا داود فأعطاهم رقابها ؛ فقال سليمان بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ، ويعطى أهل الغنم الكرام فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذى كان ليلة نفشت فيه الغنم ، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم .

وهكذا قال شريح ومرة ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد .

وقال ابن جرير :

حدثنا ابن أبى زياد ؛ حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا إسماعيل عن عامر قال :

جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما :

إن شياه هذا قطعت غزلا لى .

فقال شريح :

نهاراً أم ليلا ؟

فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه . وإن كان ليلا فقد ضمن

ثم قرأ :

(وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) الآية .

وهذا الذى قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة من حديث الليث بن سعد عن الزهرى عن حرام بن سعد ابن محيصة أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً (أى بستاناً)

فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها .

وقوله : (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً) .

قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى .

فقال : ما يبكيك ؟

قال : يا أبا سعيد ، بلغنى أن القضاة : رجل اجتهد فأخطأ فهو فى النار ، ورجل مال به الهوى فهو فى النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة .

فقال الحسن البصرى : إن فيما قضى الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم .

قال الله تعالى :

(وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) .

فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود .

ثم قال يعنى الحسن : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لا يشتروا به ثمناً قليلا ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحداً ، ثم تلا :

(يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وقال : (فلا تخشوا الناس واخشون) .

وقال : (ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) .

قلت : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل.

واعلم أن الأنبياء جميعاً معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا أمر لا خلاف فيه بين المحققين من علماء السلف والخلف .

وأما غير الأنبياء من أهل الاجتهاد فقد روى الإمام البخارى بسنده عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » .

وروى فى السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار »

وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال :

حدثنا على بن حفص أخبرنا ورقاء عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى .

مع نبي الله أيوب عليه السلام

وينتقل بنا النص الكريم إلى نبي عرف بالبلاء فى جسمه وماله وأهله ، فضرب المثل الأعلى فى الصبر الجميل والتسليم لقضاء الله ، وصمد صمود الجبل الراسخ ، يردد آية العرفان لخالقه ، فما وهن وما ضعف وما استكان ، حتى أتاه البشير بالشفاء . فسبحان من جعل مع الصبر نصراً ، ومع كل ضيق فرجاً ، ولكل شدة مخرجاً ، ولكل بداية نهاية .

فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر .

إنه نبي الله أيوب .

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » .

قال النبي صلى الله عليه وسلم « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل » .

وفى الحديث الآخر « يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه » .

وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك .

قال يزيد بن ميسرة : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ولم يبق شيء له ، أحسن الذكر ثم قال :

« أحمدك رب الأرباب الذى أحسنت إلىّ ، أعطيتنى المال والولد فلم يبق من قلبى شعبة إلا قد دخله ذلك فأخذت ذلك كله منى وفرغت قلبى ، فليس يحول بينى وبينك شيء . لو يعلم عدوى إبليس بالذى صنعت حسدنى » .

وقد ذكر العلامة ابن كثير فى كتابه « قصص الأنبياء » قصة أيوب كاملة . ولا بأس بذكر طرف منها ثم التعقيب عليه بما ذكره الأستاذ المرحوم عبد الوهاب النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » .

وها نحن أولاء نلخص ما ذكره أبو الفداء إسماعيل بن كثير فى كتابه :

قال رحمه الله تعالى فى نسب أيوب :

هو أيوب بن موص بن رزاح بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل ، ثم يستدل على ذلك فيقول : والمشهور أنه من ذرية إبراهيم مصداقاً لقوله تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) .

ثم قوله تعالى : (وإسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون) .

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم فى سورة النساء فى قوله تعالى :

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب) .

ثم ذكر ابن كثير قصة أيوب فى سورة ص .

قال الله تعالى :

«واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب. أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم :

كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والأراضى المتسعة من أرض « حوران » وكان له أولاد وأهلون كثير .

فسلب منه ذلك جميعه ، وابتلى فى جسده بأنواع من البلاء ؛ وهو فى ذلك كله صابر محتسب ، يذكر الله بقلبه ولسانه . ولقد طال مرضه واشتد كربه ؛ ومع ذلك بقيت زوجته الوفية ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها ، وشفقته عليها .

فكانت تتردد عليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته ، وتقوم بمصلحته .

ولقد ضعف حالها ، وقل مالها ، لطول ما أصاب زوجها من الابتلاء ، فما زادها ذلك إلا إيماناً بقضاء الله وتسليما لقدره . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » .

وقال « يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه » .

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً، حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا .

وهنا ملاحظة جديرة بالذكر ذكرها الأستاذ المرحوم عبد الوهاب النجار قال :

إن الناس يروون فى بلاء أيوب أقوالا يوردونها تدل على أنه مرض مرضاً مشوهاً ومنفراً للناس من قربانه والدنو منه .

وهذا يتنافى مع منصب النبوة . وقد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة .

شـــفاء أيوب عليه السلام

سبحان من قال فى محكم كتابه (وإذا مرضت فهو يشفين) .

لقد ظل نبى الله أيوب ملازماً لفراش المرض مدة أوصلها بعضهم إلى ثمانية عشر عاماً ، كما جاء فى بعض الروايات التى ذكرها العلامة ابن كثير ، فكان لسانه ذاكراً ، وقلبه شاكراً ، وبدنه على البلاء صابراً ، وزوجته تعينه على أمر دينه ودنياه . فما شكا ولا بكى . ولا جزع ولا تململ ، بل ظل صامداً أمام قضاء الله صمود الجبال الرواسخ.

(وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فى هذه الآية : نعم العدلان ونعمت العلاوة (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) . فهـذان العدلان (وأولئك هم المهتدون) فهذه العلاوة ، وهى ما توضع بين العدلين وهى زيادة فى الحمل ، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً .

أحاديث فى فضـــل الاسترجاع

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع ، وهو قول : (إنا لله وإنا إليـه راجعون) عند المصائب أحاديث كثيرة .

فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : « أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا سررت به . قال : « لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم آجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا فعل ذلك به » .

قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفى أبوسلمة استرجعت وقلت : اللهم آجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها . ثم رجعت إلى نفسى فقلت من أين لى خير من أبى سلمة ؟ .

فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أدبغ إهاباً لى ، فغسلت يدى من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف ، فقعد عليها فخطبنى إلى نفسى . فلما فرغ من مقالته قلت :

يا رسول الله ما بى أن لا يكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة فى غيرة شديدة أخاف أن ترى منى شيئاً يعذبنى الله به ، وأنا امرأة قد دخلت فى السن ، وأنا ذات عيال . فقال :

أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك . وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالى » .

فقلت : فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت أم سلمة بعد : أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى الإمام أحمد عن حماد بن سلمة عن أبى سنان قال :

دفنت ابناً لى ، فإنى لفى القبر ، إذ أخذ بيدى أبو طلحة يعنى الخولانى فأخرجنى وقال لى :

ألا أبشرك ؟ .

قلت : بلى .

قال : حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله : يا ملك الموت قبضت ولد عبدى ؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم . قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد » .

عـــود على بدء

وهكذا صبر أيوب على فقد المال والولد معتقداً أن الأمر كله بيد الله وحده (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) .

وجاء الشفاء من الله ، وحان وقت العافية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام ابن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه . فناداه ربه عز وجل : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟

قال : « بلى يارب ولكن لا غنى لى عن بركتك » رواه البخارى من حديث عبد الرزاق به .

قوله تعالى : (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) . أى أضرب الأرض برجلك . فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض ، الذى كان فى جسده ظاهراً وباطناً ،

وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالا تاماً ومالا كثيراً حتى صب له من المال صباً .

وأخلف الله له أهله كما قال تعالى (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) أى آجره فيمن سلف وعوضه عنهم فى الدنيا بدلهم ، وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة .

وقوله : (رحمة من عندنا) أى رفعنا عنه شدته ، وكشفنا ما به من ضر ورحمة منا به ، ورأفة وإحساناً .

(وذكرى للعابدين) أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده أوماله أو ولده ، فله أسوة بنبي الله أيوب ، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

وأما قوله تعالى :

(وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) .

فقد ذكر المفسرون فى ذلك آراء كثيرة ، نذكر منها ما قاله العلامة ابن كثير ما خلاصته :

إن هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط ، فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثاً وهو كالعثكال الذى يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ، ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط يبر ولا يحنث .

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ، ولاسيما فى حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة رضى الله عنها .

ولهذا عقب الله الرخصة وعللها بقوله :

(إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) .

وقال المفسر البيضاوى :

إن زوجته ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف إن برىء ليضربنها مائة ضربة ، فحلل الله يمينه بذلك ، وهى رخصة باقية فى الحدود .

وذكر المفسر الألوسى ما خلاصته :

إن امرأته « رحمة » بنت أفرايم أو منسا بن يوسف أو « ليا » بنت يعقوب أو « ماخير » بنت منسا بن يوسف — على اختلاف الروايات ذهبت لحاجة فأبطأت أو بلغت أيوب عن الشيطان أن يقول كلمة محظورة فيبرأ وأشارت عليه بذلك فقالت له : إلى متى هذا البلاء ؟ كلمة واحدة ثم استغفر ربك فيغفر لك ، فحلف ليضربنها إن برىء مائة ضربة ، فأمر الله بأخذ الضغث « وهو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان » .

ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها .

هذه آراء نقلناها عن المفسرين .

ومهما يكن من شىء فإن القرآن العظيم لم يصرح بأسباب الحلف ، فالشىء الذى نجزم به أن هناك حلفاً قد وقع مهما تكن أسبابه ، فإن

الحياة الزوجية لا تخلو من انفعالات قد تدفع بالزوج إلى أن يقسم ؛ والله جل فى علاه قد رخص لأيوب أن يأخذ حزمة بها مائة عود ويضرب زوجته ضربة واحدة ليبر بيمينه ، وذلك إكراماً له على صبره وإكراماً لها على وفائها .

كلمـــة أخيرة

وبعد ما ذكرنا قصة أيوب عليه السلام ، نريد أن نضع هذه القصة موضع العبرة ، فجزاء الصابرين عند الله لا يحصره عد ، ولا يحيط به حد .

ويكفى فى ذلك قوله تعالى :

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه إحياء علوم الدين ما نصه :

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف ، وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، فقال عز من قائل :

(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) .

وقال تعالى :

(وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) .

وقال تعالى :

(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

وقال تعالى :

(أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) .

وقال تعالى :

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب ، إلا الصبر .

ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر ، قال الله تعالى :

« الصوم لى وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات .

ووعد الصابرين بأنه معهم ، فقال تعالى :

(واصبروا إن الله مع الصابرين) .

وعلق النصر على الصبر فقال تعالى :

(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) .

وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى :

(أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين .

واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول .

وأما الأخبر فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما ، لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار

ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك — فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه — ثم قرأ قوله تعالى :

(ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال « الصبر والسماحة » .

وقال أيضاً « الصبر كنز من كنوز الجنة » .

وسئل مرة « ما الإيمان ؟ فقال : الصبر » .

وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة » معناه معظم الحج عرفة .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام « تخلق بأخلاق وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور » .

سـؤال وجواب وتعقيب

وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال : « أو مؤمنون أنتم ؟

فسكتوا .

فقال عمر : نعم يا رسول الله

قال : وما علامة إيمانكم ؟

قالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء .

فقال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة » .

فضـــل الصـــابرين

وقال صلى الله عليه وسلم : « فى الصبر على ما تكره خير كثير »

وقال المسيح عليه السلام : « إنكم لاتدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لو كان الصبر رجلا لكان كريماً . والله يحب الصابرين » .

والأخبار فى هذا لا تحصى .

وأما الآثار :

فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى :

عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران : أحدهما أفضل من الآخر ، لصبر فى المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملاك الإيمان ، وذلك بأن التقوى أفضل البر ، والتقوى بالصبر .

وقال على كرم الله وجهه :

بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين — والصبر — والجهاد — والعدل .

وقال أيضاً : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . ولاجسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له .

وكان عمر رضى الله عنه يقول :

نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين ، يعنى بالعدلين : الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى .

والعلاوة من يحمل فوق العدلين على البعير .

وأشار به إلى قوله تعالى :

(أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)

وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية :

(إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) .

بكى وقال : واعجباه أعطى وأثنى ، أى هو المعطى للصبر ، وهو المثنى .

وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر.

هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل .

وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه ، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة . فلا تحصل قبل معرفة الموصوف .

فلنذكر حقيقته ومعناه . وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ، ومنزل من منازل السالكين . وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور :

معارف ، وأحوال ، وأعمال .

فالمعارف هى الأصول ، وهى تورث الأحوال .

والأحوال تثمر الأعمال .

فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار.

وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى .

واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل .

ثم يستطرد الإمام الغزالى فيقول : الصبر عبارة عن ثبات جند فى مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما .

ثم يصور الإمام هذا القتال بين الجندين ، فيذكر أن هناك باعثاً يسمى باعث الدين ، وآخر يسمى باعث الهوى .

فيقول : إن الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها تسمى باعثاً دينياً . وتسمى مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى . وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال .

ومعركة هذا القتال قلب العبد .

ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى .

ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى .

ثم يخلص الإمام من هذا التصوير إلى تعريف الصبر فيقول رحمه الله تعالى :

فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حق قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله . والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين .

وإذن فإن ترك الأعمال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة ، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات .

الصـــبر نصف الايمان

يقول الإمام الغزالى فى بيان كون الصبر نصف الإيمان :

اعلم أن الإيمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعاً. وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب .

وكان الصبر نصف الإيمان باعتبارين ، وعلى مقتضى إطلاقين : أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً ، فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين ، والآخر الصبر .

والمراد باليقين : المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين .

والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولايمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل ، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ، ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال :

« من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » .

الاعتبار الثانى : أن يطلق الإيمان على الأحوال المثمرة للأعمال لاعلى المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع مايلاقيه العبد إلى ماينفعه فى الدنيا

والآخرة أو يضره فيهما ، وله بالإضافة إلى مايضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر ، فيكون الشكر أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول .

وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه :

الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر .

فصـــل
فى بيان الاسماء التى تتجدد للصبر

اعلم أن الصبر ضربان :

أحدهما ضرب بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة ، من العبادات أو من غيرها ؛ وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ؛ وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع .

الصـــبر النفسى

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمى عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر . فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق دواعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها .

وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وتضاده حاله تسمى البطر .

وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ، ويضاده الجبن .

وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلماً ، ويضاده التذمر .

وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة ، سمى سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر .

وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوماً .

وإن كان عن فضول العيش سمى زهداً ، ويضاده الحرص .

وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، ويضاده الشره .

فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر ، ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال : هو الصبر ، لأنه أكثر أعماله وأغزرها .

كما قال : « الحج عرفة » .

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبراً فقال تعالى :

(والصابرين فى البأساء — أى المصيبة — والضراء — أى الفقر — وحين البأس — أى المحاربة — أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون).

فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها . ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامى مختلفة .

والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى أولا فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزل .

وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى :

(أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم) فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات .

تقسيم آخر للصبر

ثم ينتقل الإمام الغزالى رحمه الله تعالى بعد ذلك إلى بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف فيقول :

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدهما : أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر . وعند هذا يقال : من صبر ظفر ، والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون . فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم ، واستووا على الصراط القويم ، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادى المنادى :

(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) .

الحالة الثانية : أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين . ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة .

وهؤلاء هم الغافلون ، وهم الأكثرون ، وهم الذين استرقتهم شهواتهم ، وغلبت عليهم شقوتهم ، فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله ، وإليهم الإشارة بقوله تعالى :

(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) .

وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم . وقيل لمن قصد إرشادهم :

(فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم) .

وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى ، وهو غاية الحمق ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

« الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق إلى التوبة ، ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها . أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتى .

وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلا فى استنباط دقائق الحيل التى بها يتوصل إلى قضاء شهوته ، فقد صار عقله فى يد شهواته كمسلم أسير فى أيدى الكفار ، فهم يستسخرونه فى رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلماً ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيراً عندهم لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر ، وسلط على ما حقه أن لايتسلط عليه ، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطاً لما فيه من معرفة الله ؛ وباعث الدين ، وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطاً عليه لما فيه من الجهل بالدين ، وباعث الشياطين .

وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه ، فهما سخر المعنى الشريف الذى هو من حزب الله ، وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلماً لكافر ، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه .

فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته . لأن الهوى أبغض إله عبد فى الأرض عند الله تعالى ، والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض .

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجالا بين الجندين ، فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ؛ وهذا من المجاهدين يعد مثله ، لا من الظافرين .

وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ، هذا باعتبار القوة والضعف ، ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لايغلب شيئاً منها . أو يغلب بعضها دون بعض ، وتنزيل قوله تعالى : (خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض من باب أولى .

التاركون للشـــهوات

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام ، بل هم أضل سبيلا . إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات ، وهذا قد خلق ذلك له وعطله ، فهو الناقص حقاً ، المدبر يقيناً .

ولذلك قيل :

ولم أر فى عيـــوب النـــاس عيباً
كنقص القـــادرين على التمـــام

الصبر من حيث العسر واليسر

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس ، فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد ، وتعب شديد ، ويسمى ذلك تصبراً . .

القسم الثانى : مايكون من غير شدة تعب ، بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر .

ولذلك قال تعالى :

(فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى) .

ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فإن الرجل القوى

يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة ، وأيسر قوة ، بحيث لايلقاه فى مصارعته إعياء ولا لغوب ، ولا تضطرب فيه نفسه ، ولا ينبهر ، ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد، وعرق جبين .

فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى ، فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما أذعنت الشهوات وألقمت ، وتسلط باعث الدين واستولى ، وتيسر الصبر . بطول المواظبة ، أورث ذلك مقام الرضا ، والرضا أعلى من الصبر . قال صلى الله عليه وسلم : « أعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع فى الصبر على ما تكره خير كثير » .

تقسيم آخر للصبر

قال الإمام الغزالى رحمه الله تعالى :

قال بعض العارفين :

« أهل الصبر على ثلاثة مقامات :

أولها : ترك الشهوة ، وهذه درجة التائبين .

وثانيها : الرضا بالمقدور ، وهذه درجة الزاهدين .

وثالثها : المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين .

تقسيم مهم للصـــبر

• يقول الإمام الغزالى :

« ومقام المحبة أعلى من مقام الرضا ، كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر » .

وهذا التقسيم الذى سبق إنما هو خاص بالصبر على المصائب والبلايا .

• ثم يقول الإمام الغزالى بعد ذلك :

« اعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمة : إلى فرض ، ونفل ، ومكروه ، ومحرم .

فالصبر عن المحظورات فرض .

والصبر على المكاره ، نفل .

والصبر على الأذى المحظور ، محظور ، كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكناً .

وكمن يُقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله ، فهذا الصبر مُحرم .

والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع ، فليكن الشرع محك الصبر .

فكون الصبر نصف الإيمان ، لا ينبغى أن يخيل إليك أن جميعه محمود . بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

ثم عقد الإمام الغزالى رحمه الله تعالى بعد ذلك فصلا بين فيه مواضع الحاجة إلى الصبر ، وأن العبد لايستغنى عنه فى حال من الأحوال .

قال رضى الله عنه :

«إعلم أن جميع مايلقى العبد فى هذه الحياة لايخلو من نوعين : إحداهما : هو الذى يوافق هواه ، والآخر هو الذى لايوافقه بل يكرهه . وهو محتاج إلى الصبر فى كل واحد منهما .

وهو فى جميع الأحوال لايخلو عن أحد هذين النوعين ، أو عن كليهما ، فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر .

النوع الأول

مايوافق الهوى ، وهو الصحة والسلامة ، والمال ، والجاه ، وكثرة العشيرة ، واتساع الأسباب ، وكثرة الأتباع والأنصار ، وجمع ملاذ الدنيا .

وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور ، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك فى ملاذها المباحة منها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، فإن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافى لايصبر عليها إلا صديق .

وقال سهل :

الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ؛ وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر .

ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد ، فقال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) .

وقال عز وجل :

(إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« الولد مبخلة مجبنة محزنة » .

ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر فى قميصه ، نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) إنى لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسى أن أخذته »

فى ذلك عبرة لأولى الأبصار . فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . ومعنى الصبر عليها أن لايركن إليها ، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده ؛ وعسى أن يسترجع على القرب . وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ، ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق . وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه . وهذا الصبر متصل بالشكر ؛ فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر .

وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر .

والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك .

والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء .

النوع الثانى : مالا يوافق الهوى والطبع ، وذلك لايخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى ، أولا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب ، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه ، فهذه ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان :

الضرب الأول : الطاعة ، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها ، فالصبر على الطاعة شديد . لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية ، وتشتهى الربوبية .

ولذلك قال بعض العارفين :

ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله — أنا ربكم الأعلى — ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره ، إذ استخف قومه فأطاعوه . وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع خادمه وأتباعه ، وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعاً من إظهاره ، فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء .

فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقاً .

ثم من العبادات مايكره بسبب الكسل كالصلاة .

ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة .

ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد .

فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ، ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاثة أحوال :

الأولى : قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ، ودواعى الآفات ، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء ، وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ، ومكايد النفس ، وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى » .

وقال تعالى :

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) .

ولهذا قدم تعالى الصبر على العمل ، فقال تعالى :

(إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) .

الحالة الثانية : حالة العمل كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير ، فيلازم الصبر على دواعى الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى :

(نعم أجر العاملين . الذين صبروا) أى صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء . والصبر عن النظر إليه بعين العجب ، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره .

كما قال تعالى :

(ولا تبطلوا أعمالكم)

وكما قال تعالى :

(لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى)

فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل ، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً ، وقد جمعهما الله تعالى فى قوله :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى) .

فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى ، هو المروءة وصلة الرحم ، وكل ذلك يحتاج إلى صبر .

النوع الثانى

يقول الإمام الغزالى رحمه الله تعالى فى هذا التقسيم :

الضرب الثانى : المعاصى . فما أحوج العبد إلى الصبر عنها .

وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى :

(وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » .

والمعاصى مقتضى باعث الهوى . وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة ، فإن العادة طبيعة خامسة ، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ، فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعويضاً وتصريحاً .

وأنواع المزح المؤذى للقلوب ، وضروب الكلمات التى يقصد بها الإزراء والاستحقار ، وذكر الموتى والقدح فيهم ، وفى علومهم وسيرهم ومناصبهم ، فإن ذلك فى ظاهره غيبة ، وفى باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان : إحداهما نفى الغير والأخرى إثبات نفسه ، وبها تتم له الربوبية التى هى فى طبعه وهى ضد ما أمر به من العبودية .

ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتاداً فى المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهى أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستبقاحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها ، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلا فيستبعد غاية الاستعباد ويطلق لسانه طول النهار فى أعراض الناس ، ولا يستنكر ذلك مع ما ورد فى الخبر : « من أن الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد » .

فلا ينجيه غيره. فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة .

وتختلف شـــدة الصبر فى آحاد المعاصى باختلاف داعية تلك المعصية فى قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس ، فلا جرم يبقى حديث النفس فى العزلة ، ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر فى الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد ، وإلا فإن لم يستعمل الفكر فى شىء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه .

وأما الصبر على مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار فى دفعه ، كما لو أوذى بفعل أو قول وجنى عليه فى نفسه أو ماله . فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة .

حقيقة الإيمان

قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى .

وقال تعالى :

(ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال : « يرحم الله أخي موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

وقال تعالى :

(ودع أذاهم وتوكل على الله) .

وقال تعالى :

(واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا) .

وقال تعالى :

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك) .

وقال تعالى :

(ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) .

أى تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم فى القصاص وغيره فقال تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) .

وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر ، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً .

القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره ، كالمصائب مثل موت الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة بالمرض ، وعمى العين . وفساد الأعضاء . وبالجملة سائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر .

درجات الصبر

قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى ، فله ثلثمائة درجة ، و صبر عن محارم الله تعالى ، فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ماقبلها وهى من الفرائض ، لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم .

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء ، لأنه بضاعة الصديقين ، فإن ذلك شديد على النفس ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ماتهون على به مصائب الدنيا » .

فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

وقال أبو سليمان : والله ما نصبر على ما تحب فكيف تصبر على مانكره؟

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل : إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً » .

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة » .

وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى : « إنا لله وإنا إليه راجعون » اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيراً منها إلا فعل الله به ذلك » .

وقال أنس : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه ؟ قال سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا . قال تعالى : جزاؤه الخلود فى دارى والنظر إلى وجهى » .

وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل : إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى إلى عواده أبدلته لحما خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ، فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته فإلى رحمتى » .

وقال داود عليه السلام : « يارب ما جزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان ، فلاأنزعه عنه أبداً » .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلاما كان ما عوضه منها أفضل مما انتزع منه ، وقرأ (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

وسئل فضيل عن الصبر فقال : هو الرضا بقضاء الله . قيل وكيف ذلك ؟ قال : الراضى لا يتمنى فوق منزلته :

وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) .

ويقال إن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه .

وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث:

حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك » .

ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوماً وفى كمه صرة فافتقدها ، فإذا هى قد أخذت من كمه ، فقال : بارك الله له فيها لعله أحوج إليها منى .

وروى عن بعضهم أنه قال :

مررت على سالم مولى أبى حذيفة فى القتلى وبه رمق ، فقلت له : أسقيك ماء ؟

فقال : جرنى قليلا إلى العدو ، واجعل الماء فى الترس فإنى صائم فإن عشت إلى الليل شربته .

فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى .

فإن قلت : فبماذا تنال درجة الصبر فى المصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لا تكون فى نفسه كراهية المصيبة ، فذلك غير داخل فى الاختيار ؟

فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة فى الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة فى الملبس والمفرش والمطعم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره ، فينبغى أن يجتنب جميعها ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ويبقى مستمراً على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت .

كما روى عن الرميصاء أم سليم رحمها الله أنها قالت : توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب ، فقمت فسجيته فى ناحية البيت ، فقدم أبو طلحة ، فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل ، فقال كيف الصبى ؟ قلت بأحسن حال بحمد الله ومنّه ، فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك ، حتى أصاب منى حاجته ، ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا ؟ قال مالهم ؟ قلت : أُعيروا عارية ، فلما طُلبت منهم واسترجعت جزعوا ، فقال : بئس ما صنعوا ، فقلت : هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه ، فحمد الله واسترجع . ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأخبره فقال : اللهم بارك لهما فى ليلتهما . قال الراوى : فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرأوا القرآن .

وروى جابر أنه عليه السلام قال : « رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء إمرأة أبى طلحة » .

تعزية لأحـد الصالحين

كتب ابن أبى نجيح يعزى بعض الخلفاء :

إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له .

واعلم أن الماضى قبلك هو الباقى لك ، والباقى بعدك هو المأجور فيك.

واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه .

حقيقـــة الزهـــد

لما كان الزهد ملازماً للصبر ، فقد عرفه الإمام الغزالى رحمه الله تعالى بقوله : «ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين ، وإشارة الإيمان ، وهذا ملك الاستحقاق ، إذ به يصير صاحبه حراً ، وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخراً مثل البهيمة مملوكاً يقهره زمام الشهوة ، آخذاً بمختنقه إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اعتزاز الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً ، وينال الربوبية بأن يصير عبداً ، ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً فى الدنيا منكوساً فى الآخرة ؟

ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ .

قال : كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك ؟ فقال : كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبدى . فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأنك عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لى .

فهذا إذن هو الملك فى الدنيا ، وهو الذى يسوق إلى الملك فى الآخرة . فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة ، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً .

• • •

وبعد ، أيها القارىء الكريم ، فقد سجلنا على هذه الصفحات موضوع الصبر وما يتعلق به ، وإن كان الحديث قد طال ، فذلك لأننا فى عصر نحن أحوج ما نكون فيه إلى التمسك بالصبر ، والاعتصام بالله ، فقد طغت الماديات على المعنويات ، وانصرفت القلوب إلى حب الدنيا وكراهية الموت ، فاستشرى الداء ، وعز الدواء ، وعجز الأطباء ، فهل إلى خروج من سبيل ؟

نعم ، إن السبيل هناك فى كتاب الله ، ففيه الهداية عن ضل ، وفيه الرى لمن له الظمأ وفيه النجاة لمن تشعبت به سبل الحياة .

قال على رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن . قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله » .

صدقت يا سيد الرسل نشهد أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت فى الله حق جهاده .

مـــــع الأنـــبياء

يا إخوة الإسلام :

ما زلنا مع موكب التوحيد ، مع كواكب الهدى ، ونجوم الدعوة الإسلامية مع الأنبياء الذين رفعوا راية لا إله إلا الله ، وحطموا الشرك وأهله .

ولقد انتهينا فى حديثنا السابق إلى قصة أيوب ، وعقبنا عليه بموضوع الصبر .

والآن نواصل زحفنا المقدس مع هذه السورة الكريمة ، سورة الأنبياء

قال الله تبارك وتعالى : (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) .

أما إسماعيل فقد أثنى عليه الله تعالى فى سورة مريم قائلا :

(واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) .

وإسماعيل هو أبو عرب الحجاز كلهم . وقد أثنى عليه ربه بأنه كان صادق الوعد .

وفى صدق الوعد الذى اتصف به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يروى أبو داود فى سننه وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطى فى كتابه مكارم الأخلاق من طريق إبراهيم بن طهمان عن عبد الله بن ميسرة عن عبد الكريم يعنى ابن عبد الله بن شفيق عن أبيه عن عبد الله بن أبى الحمساء قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فبقيت له على بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك قال فنسيت يومى والغد ، فأتيته فى اليوم الثالث وهو فى مكانه ذلك ، فقال لى يافتى لقد شققت على ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » .

وقال بعضهم : إنما قيل صادق الوعد لأنه قال لأبيه (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) فصدق فى ذلك .

فصدق الوعد من الصفات الحميدة ، كما أن خلفه من الصفات الذميمة .

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

وأما قوله تعالى: (وكان رسولا نبياً) فإنه تشريف وتكريم ، ومكانة رفيعة للذبيح إسماعيل . فالرسالة أخص من النبوة ، فكل رسول نبي ولايلزم أن يكون كل نبي رسولا . فالنبي هو كل من أوحى الله إليه بشرع ، فإن أمره بالتبليغ كان نبياً ورسولا . وإلا كان نبياً .

فالنص على الرسالة والنبوة بجانب إسماعيل إثبات لشرف قدره وعلو وشأنه .

الايجابية فى الاســلام

وأما قوله جل جلاله فى شأن إسماعيل : (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) فهذه هى المسئولية فى الإسلام .

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع وهو مسئول عن رعيته » .

إن الإسلام بقدر مايحترم المسئولية فإنه ينبذ السلبية ، ويمقت اللامبالاة.

إسمع إلى هذا النص فى قدسيته وروعته : (وكان يأمر أهله) فواجب الإنسان أن يبدأ بنفسه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .

وقال جل جلاله : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون) .

وهنا يأتى الإخبار بصيغة الأمر (وكان يأمر) لأن المأمور به واجب الأداء إذ هو الصلاة والزكاة ، وهما نموذجان لأصول الإسلام .

فالصلاة تمثل الجانب البدنى والروحى ، والزكاة تمثل الجانب المادى.

وهل يخلو الكون من الروح والمادة ؟

صـــيغ الصلاة والزكاة فى القرآن الكريم

ومن ثم فقد احتفى القرآن الجليل بتلك الفريضتين ، فجاءتا مقترنتين فى اثنتين وثمانين آية . وتنوعت صيغ الأسلوب فى هذه الآيات ، فمرة يأتى الأسلوب بصيغة الماضى ، كما فى قوله تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

ويأتى بصيغة المضارع . كما فى قوله جل شأنه (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

ويأتى بصيغة الأمر كما فى قوله تبارك اسمه : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) .

ويأتى بصيغة الصفة كما فى قوله تعالى (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما) .

ويأتى بصيغة المصدر : قال سبحانه (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) .

هذا هو شأن الصلاة مع الزكاة .

والويل كل الويل لمن ضيع الصلاة واتبع الشهوات . (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً) .

والويل كل الويل لمن بخل بالمال وكنزه ، ولم يعرف لله حقه فيه (والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

وسبحان من قال (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير) .

وإذا كان أمر الأهل بفعل الطاعات من صفات الذبيح إسماعيل ، فهو أيضاً من صفات خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد قال له الله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) .

وقد جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح فى وجهها الماء . رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

مع نبى الله إدريس عليه السلام

وأما إدريس الذى اقترن ذكره فى هذه الآية بذكر إسماعيل ، فقد قال الله تبارك وتعالى عنه فى سورة مريم :

(واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً . ورفعناه مكاناً عليا).

وقد جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به فى ليلة الإسراء وهو فى السماء الرابعة .

وقد ذكر ابن عباس أن إدريس كان خياطاً ، فكان لا يغرز إبرة إلا قال سبحان الله ، فكان يمسى حين يمسى وليس فى الأرض أحد أفضل منه .

مع نبى الله ذى الكفل عليه السلام

بعد ما ذكر الله تعالى إسماعيل وإدريس وذا الكفل . فإن اقتران ذى الكفل بالأنبياء دليل على أنه نبى ، وقد تحدثت عنه روايات كثيرة لم نقف على صحيح منها يعتد به ، لكن الآيات وسياقها تفيد أنه نبى من الأنبياء الخمسة والعشرين ، الذين ذكروا فى القرآن الكريم ، والذين نظمهم بعضهم فى قوله :

فى تلك حجتنـــا منهم ثمانيـــة ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهموا
إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومعنى هذا أن الله تعالى ذكر فى سورة الأنعام من أول قوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) إلى قوله تعالى (وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين) فى هذه الآيات ذكر الله ثمانية عشر نبياً . ويبقى بعد ذلك سبعة وهم : آدم ، إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، ذو الكفل ، محمد صلى الله عليه وسلم .

فهؤلاء خمسة وعشرون .

ومن هنا نعلم أن الله أثنى عليهم قائلا : (وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) .

مع نبى الله يونس بن متى عليه السلام

بعد هذا يأتى بنا النظم الكريم إلى يونس بن متى نبى الله ورسوله .

يقول جل شأنه فى سورة الأنبياء :

(وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) .

أسـماء يونس فى القرآن

وقد ذكر يونس عليه السلام باسمه فى القرآن الكريم أربع مرات « سورة النساء آية ١٦٣ ، الأنعام آية ٨٦ — يونس آية ٩٨ — الصافات آية ١٣٩ » .

وذكر بوصفه فى سورة الأنبياء فى قوله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً) .

وذكر بوصفه أيضاً فى سورة القلم فى قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت . إذ نادى وهو مكظوم) .

وفى القرآن الكريم سورة سميت باسمه وجاء فيها قوله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) .

قصـــة نبى الله يونس

وخلاصة القول فى هذه الآية كما ذكرها العلامة ابن كثير : « أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهى قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى ، فأبوا عليه ، وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه ذلك ، وعلموا أن النبى لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه ، ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملها ، فرفع الله عنهم العذاب . قال الله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) .

وأما يونس عليه السلام ، فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة ، فلجت بهم وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً . فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً قال الله تعالى : (فساهم فكان من المدحضين) أى وقعت عليه القرعة . فقام يونس عليه السلام ثم ألقى نفسه فى البحر . وقد أرسل الله سبحانه من البحر — فيما قاله ابن مسعود — حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتهم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً .

ومعنى قوله تعالى (ذا النون) أى صاحب الحوت .

وقوله تعالى (إذ ذهب مغاضباً) أى مغاضباً لقومه ، وهو غضب لله. وقوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) أى نضيق عليه فى بطن الحوت . ودليله قوله تعالى (ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل لله بعد عسر يسراً) .

وقال عطية العوفى : أى فظن أن لن نقدر عليه ، أى نقضى عليه ، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ، فإن العرب تقول قدر وقدر بمعنى واحد ، ومنه قوله تعالى : (فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى قدر وأما قوله تعالى : (فنادى فى الظلمات) .

فقد قال ابن مسعود : المراد بها ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

وأما قوله تعالى : (أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فقد روى ابن أبى حاتم حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخى ابن وهب حدثنا عمى حدثنى أبو صخر أن يزيد الرقاشى قال : سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يونس النبى صلى الله عليه وسلم حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش فقالت الملائكة يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ؛ فقال أما تعرفون ذاك ؟ قالوا لا يارب ومن هو ؟ قال عبدى يونس ، قالوا

عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ؟ قالوا يارب أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنحيه من البلاء ؟ قال بلى ، فأمر الحوت فطرحه فى العراء .

وقوله تعالى (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) . فيلاحظ فى هذه الآية الكريمة أن الاستجابة جاءت عقيب ذكر الله ، وفى هذا تذكرة إلى ما قاله عبد الله بن عباس يوم عرفة ، لقد كان يذكر الله ويقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » فقال له أحدهم : يا ابن عباس أتذكر الله وأنت تعلم أن اليوم يوم عرفة يوم يستجاب فيه الدعاء فلم لاتدعو ؟ قال ابن عباس : أو ما سمعت إلى قول الله تعالى فى الحديث القدسى : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

دعوة يونس عليه السلام

إن لدعوة يونس عليه السلام وهى : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فضلا عظيما .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عمير حدثنا يونس بن أبى إسحاق الهمدانى حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد حدثنى والدى محمد عن أبيه سعد هو ابن أبى وقاص رضى الله عنه قال : مررت بعثمان بن عفان رضى الله عنه فى المسجد فسلمت عليه فلأ عينيه منى ثم لم يرد على السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أميرالمؤمنين : هل حدث فى الإسلام شىء مرتين ؟ قال : لا ، وما ذاك ؟ قلت : لا ، إلا أنى مررت بعثمان آنفاً فى المسجد فسلمت عليه فلأ عينيه منى ثم لم يرد على السلام . قال فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال : مامنعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال : مافعلت . قال سعد : قلت بلى حتى حلف وحلفت . قال ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بى آنفاً وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة . قال سعد فأنا أنبئك بها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « من هذا أبو إسحاق » ؟ . قال قلت : نعم يارسول الله . قال

« فه » ؟ قلت لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الإعرابى فشغلك . قال « نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت (لا إله إلاأنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له » ورواه الترمذى والنسائى فى اليوم والليلة من حديث إبراهيم ابن محمد بن سعد عن أبيه سعد به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبوخالد الأحمر عن كثير ابن زيد عن المطلب بن حنطب قال أبو خالد أحسبه عن مصعب يعنى ابن سعد عن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » .

قال أبو سعيد : يريد به (وكذلك ننجى المؤمنين) .

وقال ابن جرير : حدثنى عمران بن بكار الكلاهى حدثنا يحيى ابن صالح ، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن حدثنى بشر بن منصور عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبى وقاص يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى : دعوة يونس بن متى » قال قلت يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال « هى ليونس بن متى خاصة ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل (فنادى فى الظلمات : أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) فهو شرط من الله لمن دعاه به » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى شريح حدثنا داود بن المحبر ابن مخدم المقدمى عن كثير بن معبد قال : سألت الحسن فقلت يا أبا سعيد : اسم الله الأعظم الذى إذا دعا به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ؟ قال ابن أخى : أما تقرأ القرآن ، قول الله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) . ابن أخى ، هذا اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

مع النبيين زكريا ويحيى عليهما السلام

قال سبحانه وتعالى (وزكريا إذ نادى ربه : رب لاتذرنى فرداًوأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) .

بعد ما حدثنا القرآن الكريم عن شأن يونس عليه الصلاة والسلام ، عقب يذكر زكريا مع ابنه يحيى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام .

أسماء زكريا فى القرآن

وقد ورد ذكر زكريا فى القرآن الكريم فى الآيتين ٣٧ ، ٣٨ من آل عمران ، وفى آية ٨٥ من الأنعام ، وفى الآيتين ٢ ، ٧ من مريم ، وفى آية ٨٩ من الأنبياء .

أسماء يحيى فى القرآن

وذكر يحيى فى الآية ٣٩ آل عمران ، وفى الآية ٨٥ الأنعام ، وفى الآيتين ٧ و ١٢ مريم . وفى الآية ٩٠ الأنبياء .

كفالة زكريا لمريم

تحدثت سورة آل عمران عن كفالة زكريا لمريم البتول .

قال تعالى فى شأن ذلك « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

ثم عقب بعد ذلك بالحديث عن دعاء زكريا لربه أن يهبه ذرية طيبة .

وقد جاء فى السنن الصحاح أن زكريا كان زوج أخت مريم ، وقد جعل الله كفالتها له ليسعدها بعلمه وتقواه وطاعته لمولاه ؛ فقد كانت مريم يتيمة كما ذكر ذلك بعض المفسرين .

وأما قوله تعالى : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندهارزقاً) فهذا إخبار عن صبرها وجلادتها ورضاها .

مع فاطمة الزهراء رضى الله عنها

وفى هذا الموقف الكريم شبه قوى بما أجراه الله من الخير على يدى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته .

قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سهل بن زنجلة حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا عبد الله بن لهيعة عن محمد بن المنكدر عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه، فطاف فى منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً . فأتى فاطمة فقال : يا بنية هل عندك شىء آكله فإنى جائع ؟ » . قالت : لا والله ، فلماخرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته فى جفنة لها وقالت : والله لأوثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى ومن عندى ، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إليها فقالت : قد أتى الله بشىء فخبأته لك . قال : « هلمى يابنية » قالت فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هى مملوءة خبزاً ولحماً » فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله ، وصليت على نبيه وقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه حمد الله وقال « من أين لك هذا يابنية » ؟ قالت : يا أبت (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فحمد الله وقال « الحمد لله الذى جعلك يابنية شبيهة بسيدة نساء بنى

إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على ، ثم أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل على وفاطمة وحسن وحسين ، وجميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته حتى شبعوا جميعاً . قالت : وبقيت الجفنة كما هى ، قالت فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران ؛ وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً .

ثم قال الله تعالى بعد ذلك :

(هنا لك دعا زكريا ربه قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، قال كذلك الله يفعل مايشاء . قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار) .

هذا المشهد القرآنى الكريم يبين الله تعالى فيه كيف وهب الله يحيى لزكريا فيقول (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) .

وخلاصة ما قاله المفسرون فى هذا المشهد :

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم رضى الله عنها بغير أسباب ظاهرية سأل ربه الولد ، وإن كان شيخاً كبيراً قد وهن منه العظم واشتعل رأسه شيباً ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً ،

لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً . وقال (رب هب لى من لدنك (أى من عندك) ذرية طيبة) أى ولداً صالحاً (إنك سميع الدعاء)

قال الله تعالى : (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب) أى خاطبته الملائكة شفاها خطابا أسمعته وهو قائم يصلى فى محراب عبادته ، ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته . ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة (أن الله يبشرك بيحيى) أى بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى .

قال قتادة وغيره : إنه سمى يحيى لأن الله أحياه بالإيمان .

وقوله (مصدقاً بكلمة من الله) روى العوفى وغيره عن ابن عباس وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدى والربيع ابن أنس والضحاك وغيرهم فى هذه الآية (مصدقاً بكلمة من الله) أى بعيسى ابن مريم .

وقال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى بن مريم . وقال قتادة : وعلى سنته ومنهاجه .

وقد ورد فى قوله تعالى (وسيداً) معان كثيرة نسوق منها ما يلى :

قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم : الحليم .

وقال قتادة : سيداً فى العلم والعبادة .

وقال ابن عباس والثورى والضحاك : السيد الحليم التقى .

وقال سعيد بن المسيب : هو الفقيه العـــالم .

وقال عطية : السيد فى خلقه ودينه .

وقال عكرمة : هو الذى لا يغلبه الغضب .

وقال ابن زيد : هو الشريف .

وقال مجاهد وغيره : هو الكريم على الله عز وجل .

وأما قوله تعالى (وحصوراً) فقد ورد فيها معان كثيرة لا تثبت أمام البحث والتمحيص ، وخير ما قيل فيها إنه معصوم من الفواحش والقاذورات . وهذا المعنى أولى بالقبول لأنه يناسب سياق المدح ، فهو مصدق وسيد وحصور ، أما غيره من المعانى فلا يناسب هذا السياق .

قوله تعالى : (ونبياً من الصالحين) هذه أيضا بشارة بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته . وهى أعلى من الأولى ، كقوله لأم موسى (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) .

فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر (قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال) أى الملك (كذلك الله يفعل ما يشاء) أى هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شىء ولا يتعاظمه أمر .

(قال رب اجعل لى آية) أى علامة أستدل بها على وجود الولد منى (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً) أى إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوى صحيح كما فى قوله (ثلاث ليال سويا) .

ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح فى هذه الحال ، فقال تعالى (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار) .

أما قوله تعالى فى سورة الأنبياء : (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى

وأصلحنا له زوجه) فالمقصود بإصلاح زوجه فى هذا المقام أى جعلناها تلد بعد أن كانت عاقراً لا تلد .

وقوله تعالى (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) أى فى عمل القربات والطاعات (ويدعوننا رغباً ورهباً) قال الثورى : رغباً فيما عندنا ، ورهباً مما عندنا ، أو رغباً فى وعدنا ورهباً من وعيدنا . وهكذا حال المؤمن يدور بين نور الوعد ونيران الوعيد .

أما قوله تعالى (وكانوا لنا خاشعين) فللخشوع هنا معان نلخصها فيما يلى :

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أى مصدقين بما أنزل الله .

وقال مجاهد : مؤمنين حقاً . وقال أبو العالية : خائفين . وقال أبوسنان : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لايفارقه أبداً . وعن مجاهد أيضاً : خاشعين أى متواضعين وقال الحسن وقتادة والضحاك : خاشعين أى متذللين لله عز وجل . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا على ابن محمد الطنافسى حدثنا محمد بن فضيل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن عبد الله القرشى عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ثم قال : أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله وتثنوا عليه بما هو له أهل وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) .

مع مريم وابنها عليهما السلام

قال تعالى (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) .

نختتم هذا الكتاب بالحديث عن مريم وعفتها ، فقد حفظها الله من كل سوء ووهبها عيسى الذى كان آية معجزة من آيات الله فى الكون (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) .

• • •

حينما بدأنا نشر هذه السلسلة من كتب فضيلة الشيخ كشك غفلنا عن ذكر تسلسل حياته .. لأنه غنى عن التعريف .. ولكن استجابة لرسائل القراء التى تصلنا من مختلف انحاء العالم الاسلامى والتى تطالبنا بمعرفة حياة الداعية الكبير نقدم لهم حياة المؤلف فى سطور :

- عبد الحميد عبد العزيز محمد كشك .
- من مواليد بلدة شبراخيت محافظة البحيرة عام ١٩٣٣ .
- التحق بجمعية تحفيظ القرآن الكريم ، حيث اتم حفظه القرآن وهو فى الثانية عشرة من عمره .
- التحق بالقسم الابتدائى بمعهد الاسكندرية الدينى .
- وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية ، أنعم الله عليه بفقد البصر ، فواصل الطريق فى طلب العلم بجد ومثابرة ، بعد ما قضى حولين من عمره يطلب العلاج ، ولكنه حمد الله على قدره ، فان الله يعوض عن نور البصر ذكاء البصيرة .
- التحق بمعهد القاهرة الثانوى ، وكان الاول على فرقته دائما ، وحصل على مجموع مائة فى المائة عندما انتقل من الثالثة الى الرابعة فى القسم الثانوى ، وفى الشهادة الثانوية حصل على مجموع ٩٨ر٥٪ .
- التحق بكلية اصول الدين ، حيث حصل على الشهادة العالمية، وكان ترتيبه الأول ، ومثل الأزهر الشريف فى عيد العلم عام ١٩٦١ .
- حصل على شهادة العالمية مع تخصص التدريس العالى .
- عمل اماما وخطيبا بمساجد وزارة الأوقاف .
- خطيب وامام مسجد عين الحياة (الملك سابقا) منذ عام ١٩٦٤

والآن يوجه دعوته على منبر مسجد عين الحياة بشارع مصر والسودان بالقاهرة .

النـــاشر

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
مقـــدمة	٥
تمهيـــــد	٧
الدعوة الى حسن الخلق	١٠
آية جامعة فى معانى البر	١١
أخلاق قرآنية	١٧
أحاديث توصى بحسن الجوار	٢٠
الوصايا العشر	٢٦
التفســـــير	٢٨
التوحيد الخالص	٣٢
آيات دالة على التوحيد	٣٤
مواكب التوحيـــد	٣٧
مع الخليل ابراهيم عليه السلام	٣٨
ماذا كانت العاقبـــة ؟	٤١
ابراهيم عليه السلام فى مشهد قرآنى جليل	٤٢
مع نبى الله لوط عليه السلام	٤٤
مع نبى الله نوح عليه الســـلام	٤٥
مع النبيين داود وسليمان عليهما السلام	٤٧
التفســـــير	٤٨
مع نبى الله أيوب عليه الســـلام	٥٣

الموضـــوع	الصفحة
شفاء أيوب عليه الســـلام	٥٧
أحاديث فى فضل الاسترجاع	٥٨
عود على بدء	٦٠
كلمة أخـــيرة	٦٤
سؤال وجواب وتعقيب	٦٧
فضـــل الصـــابرين	٦٨
بيان حقيقة الصبر ومعنـــاه	٧٠
الصبر نصف الايمـــان	٧٢
فضل فى بيان الأسماء التى تتجدد للصبر	٧٤
الصـــبر النفسى	٧٥
تقسيم آخر للصبر	٧٧
التاركون للشـــهوات	٨٠
الصبر من حيث العسر واليسر	٨٠
تقسيم آخر للصبر	٨١
تقسيم مهم للصبر	٨٢
حقيقـــة الايمـــان	٩٠
درجـــات الصبر	٩٢
أم سليم زوج أبى طلحة	٩٥
تعزية لأحد الصالحين	٩٦
حقيقـــة الزهـــد	٩٧
مع الأنبيـــاء	٩٩
مع نبى الله اسماعيل عليه الســـلام	١٠٠
الايجابيـــة فى الاسلام	١٠٢

الموضـــوع	الصفحة
صيغ الصلاة والزكاة فى القرآن الكريم	١٠٣
مع خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام	١٠٥
مع نبى الله ادريس عليه السلام	١٠٦
مع نبى الله ذى الكفل عليه السلام	١٠٧
مع نبى الله يونس بن متى عليه السلام	١٠٨
أسماء يونس فى القرآن	١٠٨
قصة نبى الله يونس	١٠٩
دعوة يونس عليه الســـلام	١١٢
مع النبيين زكريا ويحيى عليهما السلام	١١٥
أسماء زكريا فى القرآن	١١٥
أسماء يحيى فى القرآن	١١٥
كفـــالة زكريا لمريم	١١٦
مع فاطمة الزهراء رضى الله عنها	١١٧
مع مريم وابنها عليهما السلام	١٢٢

رقم الايداع ١٩٨٠/٣١٠٨

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ـ٧٣٢٣ـ١١ـ٥

مطابع الأهرام التجارية ـــ القاهرة ـــ مصر